جامعة محمد خيضر بسكرة كلية الآداب واللغات قسم الآداب واللغة العربية

محاضرات في مادة البلاغة العربية

المحاضرة01: البلاغة والفصاحة التعريف والغرض من الدراسة

د/ باديس لهويمل

تمهيد:

البلاغة العربية وعلومها الثلاث أو فنونها(المعاني، والبيان ، والبديع) هي في حقيقتها ، تَتَبّع لمواطن الجمال الأدبي في النصوص والكلام الجميل، إنها محاولات لتحديد معالم ومظاهر هذا الجمال ومحاولات لتأطير وجوه هذا الجمال ، لكنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تجمع كل عنا ?ره، كون الجمال في كثير من الأحيان نتذوقه بحسنا وشعورنا الباطني دون أن يستطيع فكرنا تحديد كل العنا ?ر التي امتلكتنا فاستحسناها وأعجبنا بها، فآفاق هذا الجمال أوسع من أن يتم تحديدها أو حصرها بمقاييس معينة، لكن يمكن أن نكتشف بعض مواطنها وملامحها على غرار ما فعل البلاغيون في تحديدم علوم البلاغة الثلاثة علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع فكل ما ورد ضمنها يعدّ محاولات لوضع كلّيات عامة تبين مواطن الجمال اللغوي والأدبي في الكلام انطلاقا من نصوص جميلة شعرية ونثرية .

فكان الغرض من كل هذا محاولة تربية القدرة على الإحساس بعنا ?ر الجمال الأدبي في الكلام الأدبي الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، ثم محاولة محاكاتها في إنشاء الكلام لأجل تنمية القدرة على الإبداع والابتكار للذين يملكون في فطرتهم الاستعداد لشيء من هذا الإبداع شعريا أو نثريا.

وليس الغرض من كل هذا الجمود بتحديد قوالب جاهزة لكل إبداع بل يبقى الأمر نسبيا كون الأمر مرتبط بالإحساس المرهف بمواطن الجمال، لتقديم الأفكار ثم ياغتها أدلبيا بلغة جميلة.

فالبلاغة في إطارها العام محاولات لتلمُّس مواطن الجمال الأدبي ومحاولة تأطيره، لأجل تربية القدرة على الإحساس بالجمال الأدبي ومحاولة محاكاته والإبداع على منواله .

(ينظر عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص11 ،12)

أولا: تعريف البلاغة والفصاحة :

1/البلاغة لغة: نقول بلغ الشيءُ يبلغُ بلوغا وبلاغا، إذا وصل وانتهى إلى غايته

وأبلغت الشيء إبلاغا وبلاغا إذا أوصلته إلى غايته ونهايته.

وبلغ الغُلام والجارية إذا وصلا إلى مرحلة التكليف ، فيصيرا ذكرا بالغا، وأنثى بالغة. والأمر البالغ هو الذي وصل إلى غايته فكان نافذا.

فهي بمعنى الانتهاء إلى أعلى درجات الشيء حتى لا يكون بعده شيء أحسن أو أعلى سواء كان الانتهاء في أمور مادية أو معنوية. (ينظر أحمد مطلوب :البلاغة والتطبيق ص71)

فالبلاغة لغة تعني الو ول والانتهاء، و تكون و فا للكلام ، وللمتكلم.

2/ البلاغة اصطلاحا: بمعنى تعريف البلاغة الا طلاحي العلمي عند علماء البلاغة

نجد في كتاب الجاحظ "البيانُ والتَّبيّن" جملة من تعريفات العلماء للبلاغة ومنهم:

- تعريف معمر بن عبيدة (ت144هـ) هي" تخيّر اللفظ في حسن الإفهام"(البيان والتبيّن، ج1ص114)

يركز التعريف على نقطتين:

أ/**اختيار اللفظ**،حيث يكون اللفظ المختار معبرا عن الغاية من الكلام والقصد بدقة.

ب/**الإفهام** : ويرتبط بالسامع متلقي الكلام فمتى حققنا إفهاما له بلغة سليمة ومختارة بدقة نكون قد بلغنا الغاية .

-تعريف ابن المقفع: " اسم لمعان تجري في أمور كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون خطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب، الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة" (ينظر البيان والتبيّن، ج1 ص115، 116)

يشير في التعريف إلى كون تحديد البلاغة عام ولا يرتبط بجزء معين ولا تأطير ما بل هي حسن التصرف في الكلام بما هو مناسب كونها تجري في معان كثيرة فأما بلاغة السكون فيعني بها السكوت أثناء الكلام في لحظات معينة يفرضها سياق الكلام، وأما بلاغة الاستماع فالمعنى حسن الإنصات للمتحدث لفهم الكلام ومغزاه فنعي المقصود ونحسن الرّد، وأما بلاغة الاحتجاج فترتبط بقدرة على المناظرة والجدال ولا يقدر عليها إلا من أوتي سعة في العلم وقدرة عقلية على الربط والاستنتاج والرد، واما البلاغة في الجواب فتعني حسن اختيار الجواب المناسب في التوقيت المناسب ولذل نجد من فصول البلاغة ما يسمى "جواب الحكيم".

وأما أن تكون البلاغة في الشعر والخطب والرسائل فتلك معلوم انها ﷺنوف في كلام العرب اعتادت أن تؤلف فيها وتعبر بها ولكل ﷺنف منها مقام خاص يتطلبه فحسن التعبير في المقام الخا ﷺة باللغة الجميلة التي تفهم القصد وتبلغ المراد دون إطالة فهي البلاغة.

أما قصد ابن المقفع بالإشارة إلى المعنى والوحي فلعله يشير إلى ميزان البلاغة عنده وهو :

الإشارة إلى المعنى ، والإيجاز بالقدر الذي يتطلبه ويحتاجه المعنى دون إطالة. (ينظر بلخير أرفيس محاضرات في البلاغة ص04)

- ويعرفها الخطيب القزويني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" (ينظر : الخطيب القزويني الإيضاح في علوم البلاغة ص 20)

يركز تعريفه على ثلاث مصطلحات مهمة (الكلام، والحال، والفصاحة)

أما **الكلام** فيقتضي متكلما ومستمعا أو لنقل مخاطِبا ومخاطَبا(باثٌ ومتلقٍ)

وأما **الحال** فقسمان : لغوي مقام التنكير ليس نفسه مقام التعريف مثلا ،

مقامي: مقام الحزن ليس نفسه مقام التهنئة.

وأما الفصاحة فهي ترتبط بأمرين: المتكلم وطريقة أدائه ، والكلام وطريقة بنائه.

ولعل أقرب من عرّف البلاغة ا طلاحا هو أبو هلال العسكري(ت395ه) في كتابه "الصّناعتين" إذ نجده يقول : "إنّ أحق العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله، جلّ ثناؤه، هلم البلاغة ومعرفة الفصاحة"(الصناعتين:ص1) ونجده يقول :" البلاغة كلّ ما تبلغ به قلب السّامع فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسك، مع ورة مقبولة ومعرض حسن" (الصناعتين ص06)والبلاغة عنده فة للكلام لا المتكلم لأنه لا يصح أن يسمّى الله بليغا، إذ لا يجوز أن يو ف بصفة موضوعها الكلام، والحقيقة أن تسمية المتكلم بأنه بليغ توسعة فقط والحقيقة أن المقصود كلامه بليغ.

03/ الفصاحة لغة وا طلاحا: تعني عند اهل اللغة البيان ، الإفصاح هو الإبانة،

أفصح الصّبح : إذا بدا ضوؤه واستبان، و فصُحَ الرجل فصاحة فهو فصيحٌ، إذا كان في كلامه قادرا على أن يبيّن مُراده بوضوح دون عجز، ولا تلكُّؤٍ، أو تعثّر في نطق الألفاظ أو في اختيار الكلمات الدالة على ما يريد إيضاحه من المعاني للمتلقين .

وفصُّحَ اللّبن إذا أزيلت الرغوة من سطحه فبان وظهر. (ينظر البلاغة العربية أسسها وعلومها..ص110.)

وقد ذكر العلماء أن الفصاحة تأتي و فا للكلمة الواحدة ، وو فا للكلام ، وو فا للمتكلم.

أ/فصاحة الكلمة: الكلمة الفصيحة هي الكلمة العربية التي تخلو من أربعة عيوب التنافر والغرابة ومخالفة القياس وكراهة السمع.

ب/***فصاحة الكلام***: هو ماكان سهل اللفظ واضح المعنى، جيّد السبك ومتلائم الكلمات، فصيح المفردات غير مستكره ولا ممجوج ولا متكلّف ولا مخالف لقواعد العرب في نحوها و ﷺرفها.

ج/ فصاحة المتكلم: من كان كلامه فصيحا أي ذا ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بكلام فصيح دون تلعثم ولا تلكؤٍ فما شاء من معنى استطاع التعبير عنه بيسر وسهولة وبكلام فصيح المفردات وفصيح الجمل والتراكيب. ولا يكون المتكلم فصيحا حتى يلمّ باللغة العربية .

ملاحظة:

نلحظ في جل كتب البلاغيين الأوائل أن مصطلحي البلاغة والفصاحة يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أ ﷺل كل منهما، فكل واحد منهما يراد به الإبانة عن المعنى والإظهار له.

فإن أردنا التفرقة بينهما قلنا الفصاحة تمام آلة البيان وهي مقصورة على اللفظ ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.

يقول ابن سنان الخفاجي(466ه) في كتابه سر الفصاحة": والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على و ﷺف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا و ﷺفا للألفاظ مع المعاني ، لا يقال في كلمة واحدة لا تدلّ على معنى يفضُل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا"(سر الفصاحة ص60.)

بهذا حصر الفصاحة في الألفاظ والبلاغة في المعاني والألفاظ، وأ ﷺبحت بذلك الفصاحة شطرا للبلاغة وأحد جزئيها. كما يقول أحمد مطلوب .

وعموما البلاغيون الأوائل حتى عهد الجرجاني لا يفرقون بين المصطلحات البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ويطلقونها جميعا مترادفات لمعنى واحد ولم تظهر الحدود بينها بصفة نهائية إلا متأخرا .

وحينما قسّم السكاكي (ت626هـ) البلاغة ووضع معالم كل قسم منها في كتابه مفتاح العلوم نجده قدّم تعريفا دقيقا لها بقوله: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها" (السكاكي، مفتاح العلوم، ص200.)

وجعل لها طرفان أعلى وأسفل متباينان وبينهما مراتب متفاوتة فمن الأسفل تبتدئ البلاغة وهو القدر الذي إذا نقص منه الكلام □ار بمثابة أ □وات الحيوانات ، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حدّ الإعجاز. ويمثل نظم القرآن أعلى □وره.

ينظر:

عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها و □ور من تطبيقاتها ص110-127.

البلاغة العالية : عبد المتعال الصعيدي ص14 وما بعدها